لو اكتفى هذا المتكبر بشكر الله على ما منحه الله من مال وجاه ونسب وجمال، لكان في مصاف الشاكرين الذين يحبهم الله، ويكرمهم الله فوق كرامتهم، فالشكر لله من أولويات ما يطلب من الأنبياء، فالله يخاطب نبيه موسى قائلا: (يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين)

المتكبر جحد نعمة الله ونسبها لنفسه، كما فعل قارون الذي خسر الدنيا والآخرة.. قارون الذي شح على ربه بكلمة شكر.

كان النبي ﷺ يحاول المحافظة على ما أنجزه الإسلام من مساواة وتلاحم، وكان المهاجرون والأنصار هم النموذج البشري الصرف الذي قدمه النبي ﷺ للعالم.. لقد قدم الأنصار الكثير، فماذا فعل أخوتهم المهاجرون بعد غزوة خيبر؟

المهاجرون يردون الجميل بالوفاء

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (لما قدم المهاجرون من مكة المدينة؛ قدموا وليس بأيديهم شيء، وكان الأنصار أهل الأرض والعقار، فقاسمهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام، ويكفونهم العمل والمؤونة، وكانت أم أنس بن مالك وهي تدعى أم سليم أعطت رسول الله ﷺ عذاقاً لها، فأعطاها رسول الله ﷺ أم أيمن مولاته)[1] وهي أم أسامة بن زيد.

قال أنس ابن مالك (أن رسول الله ﷺ لما فرغ من قتال أهل خيبر وانصرف إلى المدينة، رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم من ثمارهم، فرد رسول الله ﷺ إلى أمي عذاقها، وأعطى رسول الله ﷺ أم أيمن مكانهن من حائطه)[2] وقد حسن فتح خيبر من مستوى التغذية لدى المسلمين، فأصبحوا كما يقول ابن عمر رضي الله عنهما «ما شبعنا حتى فتحنا خيبر»[3]

أي ما شبعنا من التمر فقط، ومع هذه الحاجة والفقر كان الإسلام يقدم ثقافة متحضرة لأتباعه، حتى لا تزعزع المادة توازن الإنسان، فالفتوح قادمة، والوعود كشمس

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٢٩١.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٣٩١.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٥٠.

الغد مشـــرقة لا محالة، وإذا لم يتهيأ المســـلم بثقافة التوازن فسوف يجد نفسه مجرد رقم على سطح الأرض.

يقول أبو سعيد الخدري وأبو هريرة رضي الله عنهما: «إن رسول الله ﷺ استعمل رجلاً على خيبر، فجاءه بتمر جنيب، فقال رسول الله ﷺ: أكل تمر خيبر هكذا؟ فقال: لا، والله يا رسول الله إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين، بالثلاثة.

فقـــال: لا تفعل، بع الجمع بالدراهـــم، ثم ابتع بالدراهم جنيبـــاً»[1] لأن التمر من الأمـــوال التي يحدث فيها الربا، وقد «قال رســـول اللـــه ﷺ الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشـــعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثلاً بمثل، سواء بسواء، يداً بيد. فإذا اختلفت هذه الأصناف، فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد»[2] وإلا وقع المسلم بالربا.

الربا ممر يعبر من خلاله الاســـتغلال والفقر، وانهيـــار الأخلاق والاقتصاد، وهو جشـــع قديم يتجدد كلما غفت الأخلاق ونهضت الغرائز العمياء داخل الإنسان، والنبي عليه السلام يريد ردم هذا الممر الخطير على دولته وشعبه، كما يريد ردم أي ممر يعبر منه خطر إلى دولته الجديدة بالتوحيد. لذلك عاد ﷺ إلى:

بث السرايا من جديد

فأمام النبي ﷺ قائمة طويلة بالمهمات الملحة، والمخاطر والأزمات التي يتحتم عليه علاجها أوالقضاء عليها، بعد كســـر شـــوكة التآمر اليهودي، وتحييد قريش وحلفائها. ففـــي الجزيرة العربية بـــؤر للإرهاب لا تخضع لدولة ولا لنظام قائم، ولا لمفاوضات أو شـــروط، ولا حتى لعرف أو شـــرف. هناك جماعات إرهابية تعيش خارج التاريخ الذي بدأ ﷺ يكتبه بالتوحيد والإســـلام، وقد حان الوقت لتأديبها والقضاء عليها، وهي وإن كانـــت صغيرة، إلا أنها مزعجـــة ومؤلمة ومعيقة للمد الإســـلامي، وهي تلوث الجزيرة والدنيا بالشرك وقطع الطريق، ووأد البنات والنهب والسلب، والقتل والفوضى وإرعاب القوافل والمدن. وهذا هو أنسب وقت للتخلص منها أو من معظمها.

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٥٠.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٢١١.

لذلــك يتحتم عدم إهدار فرصة الســلام مع قريش، لتأمين ممرات المســافرين والتجار والحجاج، وتأمين حدود المدينة وفرض هيبتها ووجودها في ظل هذه الأوضاع المتدهورة في الجزيرة العربية، لذلك نظم النبي ﷺ ســرايا للقيام بتلك المهمات، وقد لخص ﷺ مطالبه من أولئك الأعراب برســالة حملها أعرابي إلى من تســول له نفسه إعادة الجزيرة إلى همجية الجاهلية، وقد بقيت تلك الرســالة في خرج ذلك الأعرابي زمناً طويلاً.

رجل اسمه (يزيد بن الشخير) يتحدث عن تلك الرسالة فيقول: «كنا جلوساً بهذا المربــد بالبصرة، فجاء أعرابي معه قطعــة أديم أو قطعة من جراب، فقال: هذا كتاب كتبه لي النبي ﷺ.

فأخذته فقرأته على القوم فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

مــن محمد رســول الله ﷺ لبني زهير بن أقيش، إنكــم إن أقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأعطيتم من المغانم الخمس، وســهم النبي والصفــي، فأنتم آمنون بأمان الله وأمان رسوله»[1].

ولعل من أهم تلك السرايا سرية مهمتها تأديب (فزارة) الذين أغاروا على المدينة وسرقوا ما سرقوا.. مستغلين تواجد النبي ﷺ على أرض الحديبية، لكن وصول سلمة بن الأكوع ساهم في إفشال ذلك السطو المسلح على المدينة، وقد أرجأ ﷺ تأديبهم إلى حين عودته من خيبر، ثم كلف صاحبه أبا بكر الصديق رضي الله عنه بقيادة وتنفيذ:

غزوة فزارة

وقد شــارك في هذه الغزوة ســلمة بن الأكوع فارس تلك الغزوة السابقة المسماة (ذات قرد أو الغابة).. سلمة فارس بمقاييس جيش، وهو الآن يتحدث عن تأديب قطاع الطرق للمرة الثانية، بعد أن أدب طلائعهم في الغابة.

---

(١) ســنده صحيح رواه ابن أبي شــيبة ٧-٣٤٩ وغيره من طريق عن قرة بن خالد عن يزيد. قرة ثقة ضابط - التقريب ٤٥٥ ويزيد تابعي ثقة ولد في عهد عمر رضي الله عنه.

يقول رضي الله عنه: «غزونا فزارة وعلينا أبو بكر، أَمَّرَهُ رسول الله ﷺ علينا، فلما كان بيننا وبين الماء ساعة أمرنا أبو بكر فعرسنا، ثم شن الغارة فورد الماء فقتل من قتل عليه وسبى، وأنظر إلى عنق من الناس فيهم الذراري، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل فرميت بسهم بينهم وبين الجبل، فلما رأوا السهم وقفوا، فجئت بهم أسوقهم وفيهم امرأة من بني فزارة عليها قشع من آدم (القشع النطع) معها ابنة لها من أحسن العرب، فسقتهم حتى أتيت بهم أبا بكر، فنفلني أبو بكر ابنتها، فقدمنا المدينة وما كشفت لها ثوباً، فلقيني رسول الله ﷺ في السوق فقال: يا سلمة هب لي المرأة.

فقلت يا رسول الله والله لقد أعجبتني، وما كشفت لها ثوباً. ثم لقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق، فقال لي: يا سلمة هب لي المرأة لله أبوك. فقلت: هي لك يا رسول الله، فوالله ما كشفت لها ثوباً. فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، ففدى بها ناساً من المسلمين كانوا أسروا بمكة»[1]

وهو لا يعني بكلمة أسروا، أن أسرهم كان عن طريق الحرب، إنما يقصد أولئك المسلمين المستضعفين، الذين منعوا قهراً من الهجرة إلى نبيهم ﷺ، وقد استحقت فزارة ما أصابها من جيش أبي بكر، فقد شاركوا قريشاً في معركة الخندق كجزء من غطفان، ولم يكتفوا بذلك، بل قاموا بالإغارة على المدينة، وسرقوا وقتلوا، وهذا النوع من الإرهاب وقطع الطريق خارج عن نطاق العقل، ولا تجدي مع هذه الهمجية أساليب الحوار، ولا ينقاد صاحبها لحق إلا بعد كسر شوكته، أما من لم يتعرض لدولة الإسلام بشر فلن يتعرض له أحد، بل سيجد من دولة التوحيد وجيشها صدوراً مفتوحة وأخلاقاً رفيعة آسرة، كما حدث في هذه السرية التي قادها عليه السلام بنفسه وكانت:

سرية من أربعين رجلاً وامرأة تقود قومها إلى الإسلام

سرية مثيرة.. كلها دعوة ومعجزات.. أحد فرسانها صحابي جليل اسمه (عمران بن حصين) وهو يقول: «كنت مع نبي الله ﷺ في مسير له، فأدلجنا ليلتنا حتى إذا كان في وجه الصبح عرسنا، فغلبتنا أعيننا حتى بزغت الشمس، فكان أول من استيقظ منا أبو بكر، وكنا لا نوقظ نبي الله ﷺ من منامه إذا نام حتى يستيقظ، ثم استيقظ

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٧٥.

عمر، فقام عند نبي الله ﷺ [فلما استيقظ عمر ورأى ما أصاب الناس، وكان رجلاً جليداً، فكبر ورفع صوته بالتكبير، فما زال يكبر ويرفع صوته بالتكبير] حتى استيقظ رسول الله ﷺ، فلما رفع رأسه ورأى الشمس قد بزغت قال: ارتحلوا. [فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله، فاتتنا الصلاة. فقال: لم تفتكم.

ثم أمرهم رسول الله ﷺ فركبوا] فسار بنا حتى إذا ابيضت الشمس نزل [ونزلوا معه، وكأنه كره أن يصلي في المكان الذي نام فيه عن الصلاة، ثم قال رسول الله ﷺ: ائتوني بماء.

فأتوه بجريعة من ماء في مطهرة، فصبها رسول الله ﷺ في إناء، ثم وضع يده في الماء، ثم قال لأصحابه: توضؤوا] [ثم أمر رسول الله ﷺ أن ينادى بالصلاة، فنودي بها ثم قام] فصلى بنا الغداة، فاعتزل رجل من القوم لم يصل معنا، فلما انصرف قال له رسول الله ﷺ: يا فلان ما منعك أن تصلي معنا؟ قال: يا نبي الله أصابتني جنابة.

فأمره رسول الله ﷺ فتيمم بالصعيد فصلى، ثم عجلني في ركب بين يديه نطلب الماء، وقد عطشنا عطشاً شديداً [فأقبل رجلان من أصحابه، أحسبه علياً والزبير أو غيرهما، قال: إنكما ستجدان بمكان كذا وكذا امرأة معها بعير عليه مزادتان، فأتياني بها.] فبينما نحن نسير إذا نحن بامرأة سادلة رجليها بين مزادتين، فقلنا لها: أين الماء..؟ قالت: أيهاه، أيهاه، لا ماء لكم.

قلنا: فكم بين أهلك وبين الماء..؟ قالت: مسيرة يوم وليلة. قلنا: انطلقي إلى رسول الله ﷺ قالت: وما رسول الله [ومن رسول الله؟ هذا الصابئ؟ قالا: هو الذي تعنين، وهو رسول الله ﷺ.]

فلم نملكها من أمرها شيئاً حتى انطلقنا بها، فاستقبلنا بها رسول الله ﷺ، فسألها فأخبرته مثل الذي أخبرتنا، وأخبرته أنها موتمة لها صبيان أيتام. [فقال علي: يا رسول الله بأبي وأمي، إنا وجدنا هذه بمكان كذا وكذا، فسألتها عن الماء، فزعمت أن بينها وبين الماء مسيرة ليلة، أو زيادة، فظننا أن لم نبلغه حتى يهلك منا من هلك.

فقال رسول الله ﷺ: أنيخوا لها بعيرها.

فأناخوا لها بعيرها. فأقبلت عليهم، فقالت: استقيت لأيتام، وقد احتبست عليهم جداً. فقال رسول الله ﷺ: ائتوني بإناء.

فجاؤوا بإناء]، فأمر براويتها فأنيخت. [فقال: افتحوا عزلاء هذه، فخذوا منها ماءً يسيراً، ثم افتحوا عزلاء[1] هذه فخذوا منها ماءً يسيراً أيضاً. ففعلوا، ثم إن الرسول ﷺ دعا فيه وغمس يده فيه، فقال: افتحوا لي أفواه المزادتين.

ففتحوا، فحثا في هذه قليلاً، وفي هذه قليلاً]، فمج في العزلاوين العلياوين، ثم بعث براويتها فشربنا ونحن أربعون رجلاً عطاشاً حتى روينا، وملأنا كل قربة معنا وإداوة وغسلنا صاحبنا، غير أنا لم نسق بعيراً وهي تكاد تنضرج من الماء (يعني المزادتين) [ثم قال: أسقوا ظهركم.

فسقوا الظهر حتى روي، ثم قال رسول الله ﷺ: هاتوا ما كان لكم من قربة أو مطهرة فاملؤوها. فجاؤوا بقربهم ومطاهرهم فملؤوها، ثم قال رسول الله ﷺ: شدوا عزلاء هذه، وعزلاء هذه. ثم قال: ابعثوا البعير.

فبعثوها فنهضت وإن المزادتين لتكادان تفطان من ملئهما ثم اتخذ رسول الله ﷺ كساء المرأة] ثم قال: هاتوا ما كان عندكم.

فجمعنا لها من كسر وتمر وصر لها صرة، فقال لها: اذهبي فأطعمي هذا عيالك، واعلمي أنا لم نرزأ من مائك، [خذي هذا لأيتامك، وهذا ماءك وافراً.

فجعلت تعجب مما رأت، ثم انطلقت حتى أتت أهلها فقالوا: قد احتبست علينا فما حبسك] فلما أتت أهلها قالت: لقد لقيت أسحر البشر أو إنه لنبي كما زعم، كان من أمره ذيت وذيت، [أرأيتم مزادتي هاتين.. فوالله لقد شرب منهما] [وأخذوا من القرب والمزاد والمطاهر ما لا أحصي، ثم إنهما الآن أوفر منهما يومئذ فلبثت شهراً أو نحواً من ذلك]، فهدى الله ذاك الصرم بتلك المرأة، فأسلمت وأسلموا [ثم أقبلت في ثلاثين راكباً إلى رسول الله ﷺ]»[2] فاستقبلها بالقلب الذي يستقبل به كل حبيب

---

(١) فم الربة من أسفل.

(٢) مسلم ١-٤٧٤ والزيادة الأولى عند البخاري ١-١٣١ والثانية والثالثة والسادسة وما بعدها في دلائل البيهقي ٤-٢٧٩ وهي قوية الإسناد والرابعة والخامسة في سنن البيهقي ١-٣٢ وقد رواها من طريقين قويين عن عبد الرزاق حدثنا معمر عن عوف عن أبي رجاء عن عمران وعبد الرزاق عن معمر سند صحيح وباقي السند: سند الشيخين.

مهاجر إلى مدينة التوحيد، وقدم لأصحابه طرازاً نسـوياً رفيع المستوى.. امرأة تتسلل إبداعـاً فـي عقول قومها، وتمحو ذاكـرة وثنية متخثرة موغلة في القـدم، ثم تقنعهم بالمسـير معها في رحلة ممتعة نحو مدينة الوعي الجديد، بعد شـهر من نشر التوحيد في بيوتات قومها.

إنجاز غير مسـبوق للمرأة.. في زمن قياسـي مدهش لم ينجزه سوى النبي ﷺ، والمـرأة قادرة على أكثر وأعظم، لكن ذلك مشـروط بقدرتها علـى التخلص من عقد القصـور والاضطهاد والأنوثة، التي تتـذرع بها للتفلت من مسـؤولياتها.. حيث يأتي الوعي والتحرر بالإسلام في مقدمة تلك المسؤليات.

في تلك الغزوة لم تؤخذ تلك المرأة سبية، ولم تجد من ذلك الجيش إلا ما يسرها ويفرح أيتامها، لأنها لم تمارس أي شـيء ضد الدولة الإسلامية.. حتى ذلك الماء الذي كانـت تحمله.. لم يؤخذ منه قطرة واحـدة، بل لقد كان النبي ﷺ نهر كرم عندما أمر صحابتـه بتزويدها بالطعام، وهـم في أمس الحاجة إليه.. تعبيراً عن مواسـاته لها، وابتهاجا بما تنجزه تجاه أولئك الأيتام.

وإذا كانت تلك السرية تعود محملة بالمشاعر والعطايا والإيمان، فإن هناك سرايا عادت ببعض الكدر رغم تنفيذها لمهماتها المناطة بها، وتلك طبيعة البشر التي يفترض فيها الصواب والخطأ، لكن تلك الأخطاء قدمت دروساً في العقيدة والفكر.

درس في حدود طاعة الأمراء

سرية بعثها ﷺ وعيَّن أحد الأنصار أميراً عليها.

يقول «علي رضي الله عنه: بعث النبي ﷺ سرية فاستعمل عليها رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه فغضب فقال: أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: فاجمعوا لي حطباً. فجمعوا، فقال: أوقدوا ناراً. فأوقدوها. فقال: ادخلوها.

فهموا، وجعل بعضهم يمسـك بعضاً ويقولون: فررنا إلى النبي ﷺ من النار، فما زالوا حتى خمدت النار. فسـكن غضبه. فبلغ النبـي ﷺ فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، الطاعة في المعروف»[1].

وقد كرر هذه الأوامر أحد المهاجرين ممازحاً فرقته.. في:

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٧٧.

سرية رأس عرانة

هذا المهاجر يدعى (عبد الله بن حذافة السهمي) وهو الآن في سرية تحت إمرة صحابي اسمه (علقمة بن مجزز)

يقول أحد المشاركين فيها وهو «أبو سعيد الخدري: إن رسول الله ﷺ بعث علقمة بن مجزز على بعث أنا فيهم، فلما انتهى إلى رأس عرانة، أو كان ببعض الطريق استأذنته طائفة من الجيش، فأذن لهم، وأمر عليهم عبد الله ابن حذافة بن قيس السهمي، فكنت فيمن غزا معه، فلما كان ببعض الطريق أوقد القوم ناراً ليصطلوا، أو ليصنعوا عليها صنيعاً، وقال عبدالله (وكان من أهل بدر وكانت فيه دعابة): أليس لي عليكم السمع والطاعة؟ قالوا: بلى. قال: فما أنا آمركم بشيء إلا صنعتموه؟ قالوا: نعم. قال: فإني أعزم عليكم إلا تواثبتم في هذه النار. فقام ناس فتحجزوا، فلما ظن أنهم واثبون قال: أمسكوا على أنفسكم فإنما أمزح معكم.

فلما قدمنا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: من أمركم منهم بمعصية فلا تطيعوه»[1].

في الإسلام.. الحاكم أو الأمير أو القائد ليس نائباً عن الله، ولا متحدثاً باسمه، وليس له من صلاحيات التشريع والتحليل والتحريم ما يحلل به حراماً أو يحرم حلالاً.. حتى في بيت المال المنثور بين يديه.. ليس من حقه وحق أهله أكثر من حقوق غيره من الأمة.

يقول ﷺ لعلي بن أبي طالب شيئاً خطيراً.. ها هو علي يحدث به رجلاً يطالبه بشيء من الرفاهية في المائدة على الأقل.

اسم هذا الرجل (عبد الله بن زرير) وهو يقول: «دخلت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم الأضحى، فقرب إلينا خزيزة[2]، فقلت: أصلحك الله لو قربت إلينا من هذا البط يعني الوز، فإن الله عز وجل قد أكثر الخير..؟

---

(١) سنده حسن رواه ابن أبي شيبة ٦-٥٤٤ وغيره من طريق محمد بن عمرو عن عمر بن الحكم بن ثوبان عن أبي سعيد الخدري وعمر بن الحكم تابعي صدوق. التقريب ٤١١ وتلميذه حسن الحديث إذا لم يخالف وهو من رجال الشيخين. التقريب ٤٩٩.

(٢) الخزيز طعام متواضع كالعصيدة.

فقال: يا ابن زرير إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يحل للخليفة من مال الله إلا قصعتان، قصعة يأكلها هو وأهله، وقصعة يضعها بين يدي الناس»[1]

إذا فالأمير أو الحاكم ليس إلها، ولا نصف إله.. إنه مجرد مفوض من قبل الأمة لإدارة شئونها.. لا أكثر، والله أنزل ضمن كلامه - القرآن - آية تطالب بطاعة الأمراء أمثال ابن حذافة وذاك الأنصاري، وكل الأمراء إلى يوم القيامة فقال سبحانه: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾

وكم يحلوا لبعض خصوم الإسلام التوقف عند هذا القدر من الآية حتى يتهموا الإسلام بدعم الاستبداد، لأن بقيتها تزعجهم، فالله يقول: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، ومن كثرة ترديدهم لهذه الآية يخيل لمن لا يعرف القرآن أن الرعية ليس لها وظيفة سوى طاعة الراعي، وتقديسه والتسبيح بحمده.. متناسين أن القرآن يحتوي على آيات كثيرة تجعل العمود الفقري للحكم الإسلامي هو (العدل) فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾

العدل أحد أهم رسائل القرآن: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾

العدل هو رسالة محمد ﷺ التي ألقاها القرآن على عاتقه فقام بها خير قيام عندما خاطبه القرآن قائلا: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾

ويقول لنبيه: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا

---

(١) سنده قوي رواه أحمد ١-٧٨ من طريق ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة عن عبد الله بن زرير عن علي. وكلهم ثقات إلا ابن لهيعة ولم ينفرد، فقد تابعه في مسند الشاميين ١-١٤٩ عبد الرحمن بن ثابت العنسي وهو صدوق يخطىء التقريب ٣٣٧ .

تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

العدل رسالة كل الأنبياء بعد التوحيد ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ويقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾

العدل كان محور رسالة نبي لقوم فشا بينهم الظلم والغش والفساد المالي، حيث يحكي القرآن قول ذلك النبي ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

العدل رسالة النخبة من مثقفي وعلماء الأمة.. لا تزيين الظلم للحاكم: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾

العدل واجب على الحاكم حتى مع الخارجين عن القانون ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾

العدل واجب حتى مع من يبغضهم الحاكم ويبغضونه أو من يعاديهم ويعادونه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

العدل واجب حتى مع من يكذبون ويسرقون ويلفقون للحاكم التهم ويشوهون دينه ممن هم ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾

العدل واجب في تعاملاتنا مع غير المسلمين ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾

العدل شيء مقدس ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾

لدرجة أن جعل الله لذنب الكفر، وذنب قاتل النبي، وذنب من يقتل شخصا يأمر بالعدل عقابا شنيعا واحدا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وآيات أخرى أكثر تحرم الظلم وتتوعد الظلمة.

كان عليه السلام يؤسس بكلام ربه وبسنته مفهوما طمسته الطواغيت.. مفهوما عظيماً يقول: الأمير لخدمة الأمة لا العكس، أما طاعة الأمير فليست خدمة له.. إنها باختصار طاعة للتشريع الذي أمر الحاكم بتنفيذه.

وإذا كانت تلك السرايا قد بينت حدود نفوذ القائد فإن هناك:

سرايا تحدد صلاحيات المجاهد المسلم

فالمجاهد لم يخرج من بيته وبلاده ليملأ بطنه أو جيبه، ولم يخرج ليرضي غروراً تراقص في رأسه.. هو محارب مميز بين كل المحاربين، لم يخرجه من بيته سوى شيء واحد: أن تكون كلمة الله هي العليا، ولكي يكون هذا الهدف نقياً بين جوانحه عليه، قبل أن يخرج، أن يدفن تحت بوابة مدينته أشياء كثيرة منها:

المال، والشـــهرة، والهوى، والرغبة في الانتقام، للنفس و.. و.. لكي يتفرغ لشـــيء واحد هو: إعلاء التوحيد لا فرضه بالقوة، فإذا لم يتمكن من دفن تلك الأشـــياء، فإنها ستنغص عليه جهده وجهاده.. إن لم تحوله إلى رماد لا قيمة له.

أخطاء كثيرة وقع فيها بعض الصحابة رضي الله عنهم، لكن فعلهم ذلك لا يحسب على الإســـلام، إنما يحســـب عليهم أنفســـهم، لأن النبي ﷺ كان حياً آنذاك، وقد قام بتصحيح تلك الأخطاء حتى لا يبرر من بعدهم لنفسه ممارستها بحجة أن أحد الصحابة فعلها.. متجاهلا حكم الإسلام فيها.. متجاهلا تصحيح النبي ﷺ لتلك الأخطاء.

بعض هذه الأخطاء تبين بعد معجزة حدثت بعد إحدى السرايا.. معجزة مزلزلة.

الأرض تلفظ جسد أحد المجاهدين

قصة تعيـــد الصواب للمتهورين الوالغين بدماء الأبرياء.. قصة يرويها «جندب بن ســـفيان رجل من بجيلة قال: إني عند رســـول الله ﷺ إذ جاءه بشـــير من سرية بعثها، فأخبره بنصر الله الذي نصر ســـريته، وبفتح الله الذي فتح لهم. قال: يا رســـول الله، بينمـــا نحـــن بطلب العدو وقد هزمهـــم الله، إذ لحقت رجلاً بالســـيف، فلما أحس أن السيف قد واقعه التفت وهو يسعى، فقال: إني مسلم، إني مسلم..

فقتلته، وإنما كان يا نبي الله متعوذاً..؟

قال ﷺ: فهلاّ شـــققت عن قلبه، فنظرت صادق هو أو كاذب؟ قال: لو شققت عن قلبه ما كان يعلمني القلب، هل قلبه إلا مضغة من لحم؟ قال: فأنت قتلته، لا ما في قلبه علمت، ولا لسانه صدقت! قال: يا رسول الله، استغفر لي. قال: لا أستغفر لك.

فدفنـــوه، فأصبح على وجـــه الأرض ثلاث مرات، فلما رأى ذلك قومه اســـتحيوا وخزوا مما لقي، فحملوه فألقوه في شعب من تلك الشعاب»[1].

---

(١) حديـــث صحيح رواه أبو يعلـــى ٣-١ حدثنا عبيد الله بن عمر القواريـــري حدثنا عبد الرحمن ابن مهدي حدثني عبد الحميد بن بهرام حدثنا شـــهر بن حوشـــب حدثني جندب. شهر كثير الأوهام، لكن رواه عبد الرزاق ١٠-١٧٣ عن معمر عن الزهري عن عبد الله بن موهب عن قبيصة. وعبد الله ثقة. التقريب ٤٥٥ وقبيصة وله رؤية وله شاهد يأتي بعده

لكن النبي ﷺ علم فيما بعد.. أخبره أحدهم بما حدث، فكان في تفسير النبي ﷺ وتوجيهه شيئاً يستعيد الأمل لذلك الفارس الذي رفضته أحضان الأرض.

صحابي شهد ما حدث اسمه (عمران بن حصين) يحدثنا فيقول: «بعث رسول الله ﷺ سرية فحمل رجل على رجل من المشركين، فلما غشيه بالرمح قال: إني مسلم. فقتله، ثم أتى النبي ﷺ فقال: إني أذنبت فاستغفر لي. قال: وما ذاك؟ قال: حملت على رجل من المشركين، فلما غشيته بالرمح قال: إني مسلم. فظننت أنه متعوذ، فقتلته. فقال: هلا شققت عن قلبه حتى يستبين لك؟ قال ويستبين لي يا رسول الله؟ قال: قد قال لك بلسانه فلم تصدقه على ما في قلبه.

فمات الرجل فدفناه، فأصبح على وجه الأرض، فأمرنا غلماننا فحرسوه فأصبح على وجه الأرض. فقلنا: غفلوا.

فحرسناه، فأصبح على وجه الأرض. فأتينا النبي ﷺ فأخبرناه، فقال: أما إنها تقبل من هو شر منه، ولكن الله أراد أن يعلمكم تعظيم الدم. ثم قال: اذهبوا به إلى سفح هذا الجبل، فانضدوا عليه من الحجارة ففعلنا»[1].

وهذه سرية أخرى يأذن ﷺ لحبه أسامة بن زيد بالانضمام إليها بعد بلوغه، لكن حماس أسامة والشباب المتقد تحت ثيابه جعله يتمادى في إعطاء فروسيته ما ليس لها، فكانت زلة عمره التي لم يستطع نسيانها طوال حياته، وندمه الذي لم يقو على الهروب منه.

في سرية (الحرقات) أسامة يقتل رجلاً يقول لا إله إلا الله

ولما عاد إلى المدينة أحس بتأنيب الضمير، وزاحم أنفاسه شعور بالذنب، فلم يكن له ملاذ سوى النبي ﷺ يفصح له بما في نفسه، ويصحح به سلوكه ذلك إن كان مخطئاً.

---

(١) سنده صحيح رواه الطبراني في الكبير ١٨-٢٢٦ حدثنا بشر بن موسى ثنا محمد بن سعيد الأصبهاني ثنا حفص بن غياث عن عاصم الأحول عن السميط بن سمير عن عمران بن حصين. السميط صدوق من رجال مسلم وتلميذه تابعي ثقة وحفص ثقة فقيه وابن سعيد الملقب بـ (حمدان) ثقة ثبت: التقريب (٥٦ و١٧٣ و٤٨٠) أما شيخ الطبراني فثقة نبيل انظر البلغة (١١١) والحديث شاهد لما سبق.

يقــول رضي الله عنه: «بعثنا رســول الله ﷺ في ســرية، فصبحنا الحرقات من جهينة، فأدركت رجلاً فقال: لا إله إلا الله فطعنته.

فوقع في نفســي من ذلك فذكرته للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أقال لا إله إلا الله وقتلته؟ قلت: يا رســول الله، إنما قالها خوفاً من الســلاح. قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا..؟

فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ»[1] لهول ما ارتكبه.

أســامة هو حبيب النبي ﷺ الذي كان يحمله بين يديه إلى المســجد.. أسامة هو الذي كان ﷺ يطهر جرحه بفمه العطر، ويوصي به عائشــة رضي الله عنها قائلاً «يا عائشة أحبيه فإني أحبه»[2].. أسامة الذي يتحدث بنفسه عن مساحته داخل النبي ﷺ فيقول: «كان رســول الله ﷺ يأخذني فيقعدني على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الآخر، ثم يضمهما، ثم يقول: اللهم ارحمهما فإني أرحمهما»[3]. كل هذا الحب لا يبرر لأســامة ذلك الخطأ، ولا يمنحه حق التحدث عن أســرار القلــوب والنوايا، فالفاضح الوحيــد للقلوب هو الوحي والوحي فقــط، فإذا لم يكن ثم وحي فالقلب هو ما أمامك من مشهد لا ما تسافر بك الظنون إليه.

هاهو أحد الصحابة واسمه عتبان بن مالك يعاني من أمرين:

الأول: مرض يكبل جسده عن الوصول إلى المسجد.

والآخــر: رجــل كثرت مضايقتــه للصحابــة لدرجة جــزم بها بعضهــم أنه من المنافقين.

فــكان لا بد من تســليم هذه الحيرة الغامضة إلى النبــي ﷺ، فماذا فعل عتبان، وماذا فعل أصحابه الذين يتمنون؟

---

(١) صحيح مسلم ١-٩٦.

(٢) حديث حسن، وقد سبق انظر صحيح الترمذي للإمام الألباني أسكنه الله فسيح جناته ٤٠٩٨.

(٣) صحيح البخاري ٥-٢٢٣٦.

يتمنون اغتيال المنافقين

يقول رضي الله عنه: (أصابني في بصري بعض الشيء، فبعثت إلى رسول الله ﷺ: أنـــي أحب أن تأتيني فتصلي في منزلي فأتخذه مصلى، فأتى النبي ﷺ ومن شـــاء الله من أصحابه، فجعل يصلي في منزلي وأصحابه يتحدثون بينهم، ثم أسندوا عظم ذلك وكبره إلى (مالك بن دخشـــم) قالوا: ودوا أنه دعا عليه فهلك، وودوا أنه أصابه شـــر. فقضى رسول الله الصلاة وقال: أليس يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؟ قالوا: إنه يقول ذلك وما هو في قلبه.

قال ﷺ: لا يشهد أحد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله فيدخل النار أو تطعمه)[1] وإذا كان هنـــاك من الصحابة مـــن ألجمه الحلم عن التهور، فاكتفى بطلب الدعاء على مالك بن دخشـــم، فإن الحماس حمل أحد الصحابة على امتشاق سيفه نحو النبي ﷺ كي يأذن له بالإجهاز على رجل يجزم بنفاقه.

شـــاهده صحابي اســـمه (عبيد الله بن عدي) وتحدث عنه فقال: «إن رجلاً سارَّ رسول الله ﷺ فلم ندر ما ساره به، حتى جهر رسول الله ﷺ، فإذا هو يستأمر في قتل رجل من المنافقين، فقال رســـول الله ﷺ: أليس يشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: بلى. ولا شهادة له. قال: أليس يصلي؟ قال: بلى ولا صلاة له.

فقال النبي ﷺ: أولئك الذين نهاني الله عن قتلهم»[2]

وماذا بعد أولئك الذين تتفوه أعمالهم بأشياء فظيعة..؟

لا شـــيء ســـوى أن المســـلم غير معني باقتفاء مواطئ القلـــوب ولا مراميها، فهي مسافات طويلة ومفاوز مهلكة، وهدر للجهود والطاقات.

المســـلم معني بتجديد الحياة بالإســـلام.. بالبحث عن الخصوبة وإثراء ســـهولها بالجديد، لا بالوقوف أمام العقم وإهدار العمر في التحسر عليه، أما النتائج فهو أكبر مـــن أن يصـــر على أن تمثل بين عينيه قبل أن يمثل أجلـــه. إن جاءت فيالها من نتائج، وإن تأخرت فقد ســـبقها إلى ما هو أبهى وأبقى، كما ســـبق هؤلاء الفرسان غيرهم من الأحياء.. فرسان:

---

(١) صحيح مسلم ١-٦١.

(٢) صحيح مسلم ١-٦١.

سرية الاثني عشر شهيداً

ففي المدينة، وبينما كانت إحدى النســـاء مسافرة في منامها.. شاهدت في طريق الأحلام رحلة هؤلاء الشهداء إلى الجنة.

يقول أنس رضي الله عنه «كان رســـول الله ﷺ تعجبه الرؤيا الحسنة، فربما قال: هـــل رأى أحد منكم رؤيا؟ فإذا رأى الرجل رؤيا ســـأل عنه، فإن كان ليس به بأس كان أعجب لرؤياه إليه.

فجاءت امرأة فقالت: يا رســـول الله، رأيت كأني دخلت الجنة، فسمعت بها وجبة ارتجت لها الجنة، فنظرت، فإذا قد جيء بفلان بن فلان، وفلان بن فلان، حتى عدَّتْ اثنى عشـــر رجلاً -وقد بعث رسول الله ﷺ ســـرية قبل ذلك- فجيء بهم عليهم ثياب طلس تشـــخب أوداجهم فقيل: اذهبوا بهم إلى نهر الســـدخ أو قـــال: إلى نهر البيدج. فغمســـوا فيـــه فخرجوا منه وجوههـــم كالقمر ليلة البدر، ثم أتوا بكراســـي من ذهب، فقعدوا عليها، وأتى بصحفة أو كلمة نحوها فيها بسرة فأكلوا منها، فما يقلبونها لشق إلا أكلوا من فاكهة ما أرادوا، وأكلت معهم.

فجاء البشير من تلك السرية فقال: يا رسول الله، كان من أمرنا كذا وكذا، وأصيب فلان وفلان حتى عد الاثني عشر الذين عدتهم المرأة. قال رسول الله ﷺ: عليَّ بالمرأة. فجاءت.

قال: قُصِّي على هذا رؤياك. فقصت. قال: هو كما قالت لرسول الله ﷺ»[1].

هذا هو الهدف والنتيجة الأســـمى، والأهم في حركـــة المؤمن حتى الموت، أما في الحياة فمشروع أبيض قد يرى نتائجه وقد يموت دونها.

ســـافر أولئك الشـــهداء إلى النعيم، وبقي من بقي من رفاقهم ينتظرون الحصول على مقعد في تلك الرحلة الحلم، ولعل من أكثرهم شوقاً أولئك الذين عبروا الصحاري والبحار مهاجرين من الحبشة واليمن.. حيث كانت إحدى السرايا تنتظرهم.. في رحلة لا تقل عن معاناتهم السابقة.. سرية لدى أبي موسى سر تسميتها بـ:

---

(١) ســـنده صحيح رواه أحمد ٣-١٣٥ ثنا بهز ثنا ســـليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس وحدثنا أبو النضر ثنا سليمان المعني. سليمان ثقة وشيخه البناني تابعي ثقة سمع من أنس.

غزوة ذات الرقاع الثانية

يقول رضي الله عنه: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة ونحن ستة نفر، بيننا بعير نعتقبه. فنقبت أقدامنا، فنقبت قدماي وسقطت أظفاري، فكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت غزوة (ذات الرقاع) لما كنا نعصب على أرجلنا من الخرق»[1]

لكن أبا موسى ندم على ذكر معاناته خشية أن يعكر ذلك الحديث صفاء نيته، حيث يقول ابنه أبو بردة: «فحدث أبو موسى بهذا الحديث ثم كره ذلك. كأنه كره أن يكون شيئاً من عمله أفشاه»[2] وذات الرقاع هذه تختلف عن غزوة ذات الرقاع السابقة، لأن تلك الغزوة سميت هكذا لمرور الجيش بمكان يقال له ذات الرقاع، ومن سياق تلك الغزوة يتبين أن العدد كان أكثر من ستة بكثير، كما أن الجمال هناك كانت متوفرة، لأن جابراً كان طوال الرحلة يركب جمله الهزيل الذي اشتراه منه النبي ﷺ، كما أن جابراً رضي الله عنه كان قد تزوج حديثاً، أي بعيد وفاة والده رضي الله عنه، ولم يعلم النبي ﷺ بذلك إلا بعد أن أخبره جابر.

أما هذا الغزوة فسماها أبو موسى والستة الذين معه رضي الله عنهم بهذا الاسم لقلة الأحذية والخفاف، وهي سرية صغيرة ولم يحدد أبو موسى وجهتها، لكن أبا هريرة يحدد وجهة جيش شارك فيها، بل لقد سماها بـ:

غزوة نجد

وقد جرت في هذه الغزوة أحداثٌ أثارت تساؤل أحد الرجال الذين سألوا أبا هريرة فقالوا له: «هل صليت مع النبي ﷺ صلاة الخوف؟ فقال أبو هريرة: نعم. قال: متى؟ قال: كان عام غزوة نجد: فقام رسول الله ﷺ لصلاة العصر، وقامت معه طائفة وطائفة أخرى مقابل العدو ظهورهم إلى القبلة.

فكبر رسول الله ﷺ وكبروا معه جميعاً، الذين معه والذين يقابلون العدو، ثم ركع رسول الله ﷺ ركعة واحدة، وركع معه الطائفة التي تليه. ثم سجد وسجدت الطائفة التي تليه، والآخرون قيام مما يلي العدو.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٤٤٩ والبخاري ٤-١٥١٣.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٤٤٩ والبخاري ٤-١٥١٣.

ثـم قام رسـول الله ﷺ وقامت الطائفـة التي تليه، فذهبوا إلـى العدو فقابلوهم، وأقبلت الطائفة التي كانت مقابل العدو فركعوا وسجدوا ورسول الله ﷺ قائم كما هو.

ثم قاموا فركع رسول الله ﷺ ركعة أخرى، فركعوا معه وسجدوا معه.

ثم أقبلت الطائفة التي كانت مقابل العدو، فركعوا وسجدوا ورسول الله ﷺ قاعد ومن معه، ثم كان السـلام، فسلم رسول الله ﷺ وسلموا جميعاً. فكان لرسول الله ﷺ ركعتان، ولكل رجل من الطائفتين ركعتان ركعتان»[1]

كانـت تلك الغزوات تأديباً للمعتدين، وتأميناً لطرق التجار والحجاج وحدود دولة الإسـلام، التي تريد فرض هيبتها على من لا يؤمنـون بأخلاقيات الجوار، ولا رصيد عندهم لمفهـوم العهود والمواثيق، فبدأ الجميع ينعمون بأمن الطرق بعد تلك السـرايا الناجحة إلا قوافل قريش؟ فهل كان عليه السلام يعترضها؟

أبداً، فهذه ليست أخلاقه وقد وقع صلح الحديبية.

إذا فمن أقلق أرواح وقوافل قريش؟ من حول طريق الشام إلى جحيم؟

أبو جندل وأبو بصير كانا هناك، ورفاقهما المشـردون في البراري الممنوعون من حـق العيش بأمان في دولتهم وبين أحبتهم في المدينة، والذين مارسـت قريش أقصى حالات التوحش والتطرف في مصادرة حرياتهم.. كان هؤلاء يمارسـون عنفاً مضاداً، لكنه كان منضبطاً وموجهاً بدقة نحو سـبب معاناتهم فقـط دون غيره.. هذا الهدف المحـدد هو قريش وقوافلها. فقد أغلقت قريش أبواب الأرض دونهم، حتى منعتهم من دخـول المدنية، وهذا العنف يبرأ منه النبي ﷺ، وتبـرأ منه دولته، لكنها لا تمنعه لأنه صـراع من أجل البقاء والكرامة.. هو دفاع عن النفس، وجزاء من جنس العمل لا أكثر ولا أقل، كما أنه يجري خارج حدودها.

---

(١) سـنده قوي رواه النسـائي ٣-١٧٣ وابـن خزيمة ٢-٣٠١ من طريق عبد الله بـن يزيد المقري قال حدثنا حيوة وذكر آخر قالا حدثنا أبو الأسود أنه سمع عروة بن الزبير يحدث عن مروان بن الحكم أنه سأل أبا هريرة. عبد الله ثقة فاضل معروف وحيوة ثقة التقريب ١٥٨ وأبو الأسـود هو محمد بن عبد الرحمن بن نوفل ثقة التقريب ٤٩٣.

تجري هذه الأحداث وغيرها وتمر الأيام والشهور فإذا عام كامل يكاد ينصرم، وهذا يعني اقتراب نهاية عام على تاريخ عمرة الحديبية، التي لم يتمكن المؤمنون من أدائها بعد أن منعتهم قريش، وطلبت منهم العودة بعد عام، وهاهو الموعد يقترب، والنبي ﷺ يأمر أصحابه بالتهيؤ للتوجه لأداء:

عمرة القضاء

أي العمرة البديلة لعمرة الحديبية حسب اتفاق الطرفين، ولها استعد المسلمون وسط ظروف معنوية مرتفعة بفتح خيبر وعودة المهاجرين من الحبشة، أما المشركون فيعانون من الإحباط الشديد، فمحمد يستولي على خيبر، ودولته تتعاظم كل ثانية، وسمعته سحابة عطر تطوف الجزيرة، وأبو جندل ومن معه يقضون مضاجع قريش وقوافلها، وقوائم ضحايا أبي بصير وأبي جندل تصل إلى قريش محملة بالنواح والعويل، والندم على ذلك الشرط المكتوب بالغطرسة الوثنية، وتسير قافلة المؤمنين ملتزمة بشروط قريش التي تقول: «لا يدخل مكة السلاح إلا السيف في القراب، وأن لا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه، وأن لا يمنع من أصحابه أحداً إن أراد أن يقيم بها»[1]

تسير قافلة المؤمنين ملتزمة بالسكينة والهدوء حسب الشروط والاتفاقية الموقعة بين الطرفين، وتقترب من مكة الحبيبة، فتشرع نوافذ الأرواح وأبوابها للذكريات، وأيام الطفولة والمعاناة...

آه ما أجمل مكة وأطيب ريحها، ما أجمل ذكريات الصبا فيها، لكن أصدقاء الفشل وأعداء النجاح يمارسون دوماً السخرية من المتفوقين عليهم.. ردماً لهوة الإحباط التي يعانون منها، وهو ما تتلفظ به قريش الآن، بعد رؤيتها لمحمد وأصحابه في طرقات مكة ودروبها، لكن النبي ﷺ يجيد وأد السخرية في مهدها.. يحشو جوفها بجمر التفوق.

عبد الله بن العباس بن عبد المطلب طفل يعيش في مكة مع والده العباس.. كان هناك.. شاهد ما حدث، وتحدث فقال: «قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة وقد

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥١.

وهنتهم حمى يثرب، قال المشركون: إنه يقدم عليكم غداً قوم قد وهنتهم الحمى، ولقوا منها شدة، فجلسوا مما يلي الحجر، وأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا ثلاثة أشواط، ويمشوا ما بين الركنين ليرى المشركون جلدهم.

فقال المشركون: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا.

قال ابن عباس: ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم»[1] و«إنما سعى رسول الله ﷺ ورمل بالبيت ليري المشركين قوته»[2] والرمل هو الإسراع في المشي، وهي حالة وسط بين الركض والمشي.

وإذا كان الرمل يغيض المشركين، فإن الشعر كان يطوف حول الكعبة.. (عبد الله بن رواحة) أحد شعراء العصر والإسلام.. كان لساناً من اللهب يطوف حول الكعبة، ويحرق ما تبقى من معنويات لقريش.

أغمدت السيوف، لكن عبد الله بن رواحة لم يغمد شعره، يقول «أنس: إن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رواحة بين يديه يمشي وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

فقال له عمر: يا ابن رواحة، بين يدي رسول الله ﷺ، وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال له النبي ﷺ: خل عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم من نضح النبل»[3]

وتحسباً لأي مكروه يقول أحد الصحابة وهو (ابن أبي أوفى): «لما اعتمر رسول ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم، أن يؤذوا رسول الله ﷺ»[4]

أتم ﷺ وأصحابه عمرتهم، وعطروا أرواحهم بأجواء مكة الحلم، ومكثوا حسب الاتفاق المبرم ثلاثة أيام.. تمتعوا بقرب بيت الله الحرام، وخلال هذه الأيام طلب ﷺ يد امرأة اسمها ميمونة بنت الحارث.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٢-٩٢٣.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٢-٢٩٣.

(٣) سنده صحيح رواه الترمذي ٥-١٣٩ وغيره من طريق عبد الرزاق أخبرنا جعفر بن سليمان حدثنا ثابت عن أنس، وجعفر بن سليمان صدوق زاهد من رجال مسلم وثابت تابعي ثقة سمع أنسا انظر النسائي ٥-٢٠٢ وفي الكبرى أيضاً ٢-٣٨٣.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥٢.

الزواج بميمونة

وميمونة هذه، هي أخت زوجة العباس عم النبي ﷺ، وابن عباس رضي الله عنهما يتحدث عن زواج خالته فيقول: «تزوج النبي ﷺ ميمونة في عمرة القضاء»[١]

ويقول «تزوج النبي ﷺ ميمونة وهو محرم، وبنى بها وهو حلال»[٢] لكن يبدو أن ابن عباس قد أخطأ لصغر سنة، فقد كان طفلاً آنذاك، لذلك توجهنا إلى ميمونة رضي الله عنها، وسألناها فقالت: «رضي الله عنها إن رسول الله ﷺ تزوجها حلالاً، وبنى بها حلالاً بنى بها بسرف»[٣] وهو مكان قريب من مكة.

وقال ابن أختها الآخر يزيد الأصم: «حدثتني ميمونة بنت الحارث: أن رسول الله ﷺ تزوجها وهو حلال.

قال: وكانت خالتي وخالة ابن عباس»[٤] و«كان الذي زوجه إياها العباس بن عبد المطلب، فأقام رسول الله ﷺ بمكة»[٥] ثلاثة أيام هو وأصحابه يستمتعون بأجوائها الطيبة.. بمراتع الطفولة وذكريات الشباب.. بطرقاتها وبيوتاتها التي أرغمهم الكفر على مغادرتها، وبعد اليوم الثالث اضطروا إلى مغادرتها..

كان فراقاً مؤلماً يتحدث عنه البراء بن عازب فيقول: «أقام رسول الله ﷺ ثلاثة أيام في عمرة القضاء، فلما كان يوم الثالث قالوا لعلي: إن هذا آخر يوم من شرط صاحبك، فمره فليخرج.

فحدثه بذلك قال: نعم، فلنخرج»[٦]. فالنبي ﷺ خير من يفي بالعهود، لكن:

---

(١) صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥٣.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٥٣.

(٣) سنده صحيح رواه الحاكم ٤-٣٣ حدثنا محمد بن يعقوب ثنا محمد بن إسحاق الصغاني ثنا وهب بن جرير ابن حازم ثنا أبي قال سمعت أبا فزارة يحدث عن يزيد بن الأصم عن ميمونة. يزيد تابعي ثقة - التقريب ٥٩٩ وتلميذه راشد بن كيسان تابعي ثقة التقريب ٢٠٤ ووهب ووالده ثقتان التقريب ٥٨٥.

(٤) صحيح رواه مسلم ٢-١٠٣٢.

(٥) سنده قوي رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبراني ١١-١٧٣ والطبري. التاريخ ٢-١٤٣ ثنا أبان بن صالح وعبد الله بن أبي نجيح عن عطاء بن أبي رباح عن مجاهد عن ابن عباس. عطاء ومجاهد تابعيان إمامان ثقتان وأبان وعبد الله ثقتان التقريب ٣٩١ و٥٢٠.

(٦) حديث حسن رواه أبو عوانة ٤-٢٩٥ حدثنا الربيع بن سليمان قال ثنا أسد بن موسى ثنا يحيى بن زكريا ابن أبي زائدة قال حدثني أبي عن أبي إسحاق عن البراء.. أسد السنة صدوق وشيخه ثقة متقن ووالده ثقة لكنه سمع من أبي إسحاق متأخراً ويشهد له ما بعده.

النبي ﷺ يقدم عرضاً لقريش

يلتمس منهم السماح له بتمديد فترة بقائه وأصحابه في مكة أياماً، كما طلب منهم مشاركته أفراح عرسه ووليمته.

عن هذا الالتماس، وعن رد قريش يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «إن رسول الله ﷺ تزوج ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها، وأقام بمكة ثلاثاً فأتاه حويطب بن عبد العزى في نفر من قريش في اليوم الثالث، فقالوا له: إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا. قال: وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، فصنعت لكم طعاماً فحضرتموه؟ قالوا لا حاجة لنا في طعامك، فاخرج عنا. فخرج بميمونة بنت الحارث رضي الله عنها حتى أعرس بها بسرف»[1] وعندما هم ﷺ بمغادرة أحب البلاد إلى قلبه لحقت به ابنة عمه وحبيبه سيد الشهداء حمزة رضي الله عنه، ورغبت في مصاحبته إلى تلك المدينة الطيبة، التي آوت والدها واحتضنته إلى يوم القيامة.. «خرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادي: يا عم، يا عم. فتناولها علي، فأخذ بيدها وقال لفاطمة عليها السلام: دونك ابنة عمك احمليها.

فاختصم فيها علي وزيد وجعفر. قال علي: أنا أخذتها وهي بنت عمي. وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي. وقال زيد: ابنة أخي. فقضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: الخالة بمنزلة الأم.

وقال لعلي: أنت مني وأنا منك، وقال لجعفر: أشبهت خلقي وخلقي، وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا»[2]

نسيج متناغم وخلاب من العلاقات والحب حوله ﷺ.. كل يرى أنه أحق برعاية يتيمة حمزة، وكلمات تواسي تلك القلوب المفعمة: أنت مني وأنا منك.. أشبهت خلقي

---

(١) سنده قوي وقد ضعفه الإمام الألباني في تعليقه على فقه السيرة للشيخ الغزالي رحمهما الله حيث قال رواه ابن هشام عن ابن إسحاق بدون سند فقه السيرة (٣٦٤) لكني وجدت له سنداً في المستدرك ٤-٣٣ حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ثنا أحمد بن عبد الجبار ثنا يونس بن بكير عن ابن إسحاق حدثني بن أبي نجيح عن عطاء ومجاهد عن ابن عباس والسند من الحاكم إلى ابن إسحاق سند صحيح موثق في السيرة خاصة دون غيرها و بقية السند قوي مر معنا وهو الحديث قبل السابق.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥١.

وخلقي.. أنت أخونا ومولانا.. وقافلة رضي الله عنها تحت الشـجرة، والمطايا والقلوب تتفطر بين مكة وطيبة..

وصل ﷺ إلى المدينة، لكن حياة من نذروا أنفسهم لإزالة تجاعيد الأرض وأحزان القلـوب بالإيمان والتوحيد لا تعرف الهدوء ما دام هناك شـبر يئن من وخز الأصنام والأوثان والظلم، فالقضية ليسـت بحثا عن الغنائم، أو سـعياً وراء دفع حدود الدولة الجديد إلى الأقصى الممكن.. هي النبوة والتوحيد، ومن حق كل البشر الحصول عليها، وليس من حق من يحملونها الاسـتئثار بها وحرمان الآخرين من التمتع بها، وليس من حق أحد مهما كان منع صوت التوحيد من الوصول إلى القلوب.

بعـد عودة النبي ﷺ من مكة قرر القيـام بالتخاطب مع الدول العظمى المجاورة، لكـن قبل ذلك وصلت أخبار، ووصلت شـخصيات، وحدثت أحـداث اهتزت لها مكة والمدينة.. حتى الحبشة هزها ما هز مكة والمدينة، ولم لا تهتز المدينتان وآخر داهيتين من قريش ينتزعان قلبيهما وروحيهما من مخلفات العادات والوثنية الموروثة، ويتجهان بها نحو مدينة الفجر والتوحيد:

خالد بن الوليد وعمرو بن العاص يهاجران

وإسـلام أمثالهما يفقد قريشـاً توازنها، ويصيبها في ما تبقى لها من عزم، فأين لقريش بقائد ميداني في مثل دهاء خالد، الذي يقرأ جيش خصمه كما يقرأ اسمه..؟

وأين لها بمثل عمرو بن العاص داهية يزحزح دهاؤه الجبال..؟

كان لهذيـن العظيمين عنـاد العظماء وثقتهم بقدراتهم علـى حل معضلة محمد عاجلاً أو آجلاً، وهذا ما يغري أمثالهما ممن حباهم الله بعقول وقدرات ذات مواصفات قياسية.. تجد لديهم الفرح بما عندهم، وحب الاستقلال والترفع عما يؤمن به ويسلكه البسطاء، لكن الميزة في الإسلام هو أنه بسيط ومدهش ومعجز في الوقت نفسه، وتلك حقيقـة لا مفر منها، وقدرته على تطويع الجبابرة والمفكرين تماماً هي كنعومته ورقته في الإمساك بأيدي البسطاء والمساكين، وأخذهم إلى حيث ينعمون. لكن عنصر العناد والاعتداد بالنفس والحسد أحياناً لدى العظماء يحرمهم من البوح بالحقيقة الصارخة داخل أعماقهم، وقد كان إسلام خالد وعمرو هو الخلاص من معاناة العناد، والاعتداد

بالذات، وفي قصة إسلامهما تفاصيل تلك التعرجات التي سلكتها الروح والعقل بعيداً عن الصراط المستقيم، حتى وجدا نفسيهما يوماً في صحاري أبي جهل، حيث لا مكان لغير الضياع والعطش والموت.

يقـول عمرو رضي الله عنه: «إني قد كنت على أطباق ثلاث: لقد رأيتني وما أحد أشـد بغضاً لرسول الله ﷺ مني، ولا أحب إلي أن أكون قد استمكنت منه فقتلته، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار فلما»[1] فلما.. لما ماذا يابن العاص..؟

«لما انصرفنا من الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون مكاني ويسـمعون منـي فقلت لهم: تعلمون والله إني لأرى أمر محمـد يعلو الأمور علواً كبيراً منكـراً، وأنـي قد رأيت رأيـاً فما ترون فيه؟ قالـوا: وما رأيت؟ قـال: رأيت أن نلحق بالنجاشـي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، فإنا أن نكون تحـت يديه أحـب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهـر قومنا فنحن من قد عرف، فلن يأتينا منهم إلا خير.

فقالوا: إن هذا الرأي. فقلت لهم: فاجمعوا له ما نهدي له.

وكان أحـب ما يهدى إليه من أرضنـا الأدم، فجمعنا له أدماً كثيراً، فخرجنا حتى قدمنا عليه، فوالله إنا لنعده إذ جاء عمرو بن أمية الضمري، وكان رسـول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه. قال: فدخل عليه ثم خرج من عنده

فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري لو قد دخلت على النجاشي فسألته إيـاه، فأعطانيه فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريش إني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد.

فدخلت عليه فسـجدت له كما كنت أصنع فقال: مرحباً بصديقي، أهديت لي من بلادك شـيئاً؟ قلت: نعم أيها الملك، قد أهديت لك أدماً كثيراً، ثم قدمت إليه فأعجبه واشـتهاه ثم قلت له: أيها الملك، إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسـول رجل عدو لنا فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ١-١١٢.

فغضب، ثم مد يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقاً منه، ثم قلت: أيها الملك، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه.

فقال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله؟ قلت: أيها الملك، أكذاك هو؟

فقال: ويحك يا عمرو، أطعني واتبعه، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده.

قلت: فبايعني له على الإسلام. قال: نعم.

فبسط يده، وبايعته على الإسلام ثم خرجت إلى أصحابي، وقد حال رأيي عما كان عليه، وكتمت أصحابي إسلامي، ثم خرجت عامداً لرسول الله ﷺ لأسلم، فلقيت خالد بن الوليد، وذلك قبيل الفتح، وهو مقبل من مكة. فقلت: أين يا أبا سليمان؟

قال: والله لقد استقام المنسم، وإن الرجل لنبي، أذهب والله أسلم، فحتى متى..؟

قلت: والله ما جئت إلا لأسلم.

فقدمنا على رسول الله ﷺ، فقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوت فقلت: يا رسول الله»[1] «ابسط يمينك لأبايعك فبسط يمينه.

فقبضت يدي. قال: ما لك يا عمرو؟ قلت: أردت أن أشترط. قال: تشترط..؟ بماذا؟

قلت: أن يغفر لي. قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله.

وما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ، ولا أجلّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت، لأني لم أكن أملأ عيني منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة»[2]

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه أحمد ٤-١٩٨ والحارث (زوائد الهيثمي) ٢-٩٣٣ حدثني يزيد بن أبي حبيب عن راشد مولى حبيب بن أبي أوس الثقفي عن أبي حبيب بن أبي أوس حدثني عمرو. شيخ ابن إسحاق تابعي ثقة فقيه، وراشد قال عنه يحيى بن معين ثقة يروى عنه المصريون - الجرح والتعديل ٣-٤٨٦، وحبيب قال الحافظ في الإصابة ٢-١٥: ذكره ابن يونس فيمن شهد فتح مصر فدل على أن له إدراكاً ولم يبق من ثقيف في حجة الوداع أحد إلا وقد أسلم وشهدها فيكون هذا صحابياً.

(٢) صحيح مسلم ١-١١٢.

تلك العبارات التي تئن من أعماق عمرو بن العاص تكشف ما يتقد داخله.. كم كان اتخاذ القرار الشجاع في اعتناق الحقيقة مؤلم حقاً، لكن ذلك الألم لم يدم أمام سعادة العيش في واحة الإيمان وراحته، وأمام العيش بين تلك المشـــاعر الفياضة، التي تتدفق من كلمات وأحضان إخوته الجدد، الذين يبتهجون به وبخالد الآن.

شمس جديدة تطلع على خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وحياة جديدة بالتوحيد تشـــرق عليهما.. تغمرهما نشاطاً وحيوية، وأهدافاً أسمى، وآفاقاً كانت الوثنية تعصب عينيهما وروحيهما عنها، وإذا كانت كلمات النجاشـــي العظيم هي الشعلة التي تغلغلت في ضمير عمرو لتنيره، فإن هذا النجاشـــي لا يكف عن تحريك الحب والمشاعر، لكنه اليوم يمارس اســـتمطار الدمـــوع والذكريات، ويضفي على أجواء المدينة ســـحاباً من الحزن والوجوم. ما الذي فعله النجاشي بقلوب المؤمنين..؟.

مات النجاشي رحمه الله ورضي عنه

خبر تكدرت له الحبشـــة، وتكدر له جعفر وأصحاب السفينة والنبي ﷺ والمؤمنون جميعاً.. خبر يجعل اليوم ثقيلاً تحسب ساعاته بالدموع. لم يأت الخبر فوق سفينة أو بعير.. جاء الخبر من الســـماء، فتكدر له أهل الأرض، ولا أدري كم من الدموع سفحت على ذلك الملك الإنسان.. العادل الصالح، الذي كان خير معين عندما عز المعين، وكان خير مجير عندما ضاقت الديار والأهل بمن يقول: لا إله إلا الله.

أصحمة النجاشي تحت الثرى، لتنزل من السماء سنة جديدة مع خبر وفاته. سنة يقول عنها أبو هريرة رضي الله عنه: «نعى لنا رسول الله ﷺ صاحب الحبشة في اليوم الذي مات فيه، فقال استغفروا لأخيكم»[1] وقال: «مات اليوم رجل صالح»[2] «مات اليوم عبد لله صالح»[3]. ثم قال: «صلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم. قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: أصحمة النجاشي»[4] ثم دعا النبي ﷺ أصحابه «فخرج بهم إلى المصلى»[5].

---

(١) صحيح مسلم ٢-٦٥٧.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٤٠٧.

(٣) صحيح مسلم ٢-٦٥٧.

(٤) ســـنده على شرط الشـــيخين رواه أحمد ٤-٧ من طرق عن قتادة عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد أن رسول الله ﷺ. أبو الطفيل وحذيفة صحابيان.

(٥) صحيح مسلم ٢-٦٥٦.

والمصلى غير المسجد، فالمصلى في الصحراء وليس له جدران. ثم «إن رسول الله ﷺ صف بهم بالمصلى فصلى فكبر عليه أربع تكبيرات»[1] ليس فيها ركوع أو سجود.

يقول جابر: «إن رسول الله ﷺ صلى على النجاشي فكنت في الصف الثاني أو الثالث»[2] استغرب بعض المصلين تلك الصلاة، وذلك الاستغفار لرجل لم ير النبي ﷺ، ولم يره النبي ولم يهاجر إليه، ولم يبايعه، بل ظنوه مازال علجاً نصرانياً.

يقول أنس: «لما توفي النجاشي قال النبي ﷺ: استغفروا لأخيكم. فقال بعض القوم: يأمرنا أن نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة..؟ فنزلت ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾»[3]

علم أولئك المتسائلون مكانة النجاشي عند ربه، وشهادته له التي أنزلها من فوق سبع سماوات.. الحبشي الكريم الذي كان ذات يوم يلتقط عوداً من الأرض ويرفعه، ليخاطب من حوله من النصارى والوثنيين، ويخاطب المؤمنين الذين لاذوا بعدله وطمعوا في حمايته من بطش طواغيت قريش.. تحدث حينها فاضحاً شوقه الجارف للنبي ﷺ: «تناول النجاشي عوداً من الأرض فقال: يا معشر القسيسين والرهبان ما يزيد ما يقول هؤلاء على ما تقولون في ابن مريم ما يزن هذه، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، فأنا أشهد أنه رسول الله. والذي بشر به عيسى ابن مريم ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أحمل نعليه.. امكثوا في أرضي ما شئتم، وأمر لنا بطعام وكسوة»[4] ما أجمل هذا الأسمر وما أجمل صفاته، وما أفسح صدره وأرضه عندما ضاقت صدور الأهل والأقارب.

---

(١) صحيح البخاري ١-٤٤٣.
(٢) صحيح مسلم ٢-٦٥٧.

(٣) حديث صحيح رواه ابن أبي حاتم في التفسير ٣-٣١٨ وابن مردويه - تفسير ابن كثير ١-٤٤٤ من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس ورواه عبد بن حميد وابن أبي حاتم من طريق أخرى عن حماد عن ثابت عن الحسن عن النبي ﷺ وابن مردويه من طرق عن حميد عن أنس نحوه وهذه أسانيد صحيحة إلا مرسل الحسن لكنه قوي بها.

(٤) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ٧-٣٥٠ حدثنا عبيد الله بن موسى قال أخبرنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي بردة عن أبي موسى وقد ضعفه الإمام الألباني رحمه الله هذا السند في ضعيف أبي داود (٣٢٥) ولا أدري على أي شيء استند غفر الله له، فلا يوجد تفصيل في صحيح سنن أبي داود والصواب أنه صحيح لأن إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي بردة سند صحيح وهو من أسانيد البخاري، وأبو إسحاق عن أبي بردة من أسانيد مسلم أما تلميذ إسرائيل فثقة ثبت - التقريب ١-٦٨ وهو لم ينفرد بل تابعه عند ابن أبي شيبة ٧-٣٥٠ شيخه: عبيد الله بن موسى وهو ثقة وأثبت في إسرائيل من أبي نعيم انظر التقريب، فالسند صحيح، وللحديث شاهد حسن عند أحمد ١-٤٦١ حدثنا حسن بن موسى قال سمعت حديجاً أخا زهير بن معاوية عن أبي إسحاق عن عبد الله بن عتبة عن ابن مسعود. وحديج حسن الحديث إذا لم يخالف الثقات.

يتذكر جعفر ورفاقه الهاربين من البطش لذة طعام النجاشي وجمال تلك الكسوة، وعطف الملك الحبيب الذي جاءت الأخبار من أهل الحبشة بعد دفنه بـ:

كرامة على قبر النجاشي

تقول عائشة رضي الله عنها: «لما مات النجاشي كنا نتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور»[1].

ودع الصحابة أخاهم بالدعاء وطلب الرحمة له من الله، وتولى بعده ملك آخر، ونجاشي آخر على الحبشة، وكان هذا الملك كغيره من البشر له عقل وروح، وهما بحاجة إلى من يأخذهما إلى حيث أجواء الإسلام الرحبة، لأن في إطلاقهما إطلاقاً للشعوب والأتباع. لقد قرر ﷺ مكاتبته ودعوته للإسلام هو وغيره من الملوك والأكاسرة، فالإسلام لا يعرف الطبقات في نظرته للبشر، ولا يعرف الألوان ولا الأحساب ولا الأنساب.. هو رسالة توحيد من الخالق إلى المخلوق، ويجب على من يحملون هموم الرسالة تسليمها إلى أهلها.. إلى كل البشر دون استثناء أو تمييز، وإذا كان الإسلام يمنح الضعفاء والمستضعفين أهمية قصوى، فإنه يوظف الأقوياء لنشر الحق والعدل على وجه الأرض، ويسير معهم في ذلك إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه، وليس هناك أنسب من هذه الأيام التي أعقبت فتح خيبر، فهي أيام سلام غل فيها النبي ﷺ قريشاً عن الاعتداء والحرب، وتمكن من السيطرة على اليهود واحتواء خياناتهم داخل دوائر ضيقة يمكن مراقبتها، وهؤلاء في نظر الإسلام عصابات مزعجة، وحفر في طريق دعوة تنظر إلى أبعد من قريش وإلى أبعد اليهود..

دعوة الإسلام عالمية.. تنظر إلى الأرض دون حدود، وإلى ما هو أبعد من الأرض، أما الأقوياء الذين يسعى ﷺ لاستثمار سطوتهم وسلطتهم، فهم قادة الدول الكبرى المحيطة بالجزيرة العربية، والذين تتوزعهم ديانات واتجاهات مختلفة، لذلك قرر:

---

(١) هو ليس بحديث وسنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه أبو داود ٣-١٦ وغيره حدثني يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة. يزيد وعروة تابعيان ثقتان مرا معنا كثيرا.

مراسلة الملوك والجبابرة

ومـــن المؤكد أن ردود الفعل تجاه تلك الرســـائل ســـتكون متباينة، كما أن من غير المستســـاغ لـــدى هؤلاء الجبابرة أن يـــروا عربياً كان يرعى الغنم فـــي الصحاري وبين الجبال يقتحم عليهم ما هم فيه من أبهة وعظمة.. مطالباً إياهم باتباعه وترك ما ألفوه وورثوه هم وشعوبهم.. الأمر صعب ويحتاج إلى نفوس تتفوق على نفسها.

يقول أنس بن مالك: «إن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ»[1]. لكن وقبل أن يبعث ﷺ بتلك الرسائل اضطر إلى أن يأمر بصنع خاتم له.

النبي عليه السلام يأمر بصنع خاتم

يقول «أنس إن النبي ﷺ أراد أن يكتب إلى كسرى وقيصر والنجاشي، فقيل: إنهم لا يقبلون كتاباً إلا بخاتم. فصاغ رسول الله ﷺ خاتماً حلقة فضة، ونقش فيها محمد رسول الله»[2] «كأني أنظر إلى بياضه في يده»[3] «وكان نقش الخاتم ثلاثة أسطر:

محمد سطر

ورسول سطر

والله سطر»[4].

ختم ﷺ رســـائله، وســـلمها لمن ســـيقوم بحملها إلى أصحابها، وقد جاءت أقسى ردود الفعل على تلك الرســـالة من عباد النار في بـــلاد المجوس - فارس، ومن ملكهم المتعجرف (كســـرى) وقد حمل هذه الرسالة الصحابي الجليل صاحب الدعابات (عبد الله بن حذافة السهمي) الذي أمر أصحابه يوما بأن يقذفوا أنفسهم في النار (ممازحاً) وكانت مهمة عبد الله مقتصرة على تســـليم الرسالة إلى عظيم البحرين، والذي طلب منه النبي ﷺ تسليم الرسالة بدوره إلى كسرى، فما هو:

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٣٩٧.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٦٥٧.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٦٥٧.

(٤) صحيح البخاري ج:٣ ص: ١١٣١.

رد كسرى الفرس

ملـك معتوه لم يكـن يتمتع بلياقة أدبية، ولا حتى دبلوماسـية تؤهلـه لقيادة أمة عظيمة كأمة فارس.. كان كسرى كتلة من الغرور.. لم يُجد خطاب النبي ﷺ في تذكيره ببشـريته، وقدرة الله عليه. قرأ كتاب رسول الله ﷺ فاستشاط غضباً وغروراً.. كيف يبعث عربي إليه رسالة يقدم فيها مطالب، بدلاً من أن يبعث له بفروض الطاعة والولاء مقرونة بالهدايا والضرائب..؟!!

هـذا مـا لا يحتمله رجل وثني يعبـد حطبا محترقاً.. رجل عـديم الاحترام مثل كسـرى. يقول أحد الصحابة: « إن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة السـهمي، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه»[1] و«خرقه»[2] غير آبه به ولا بمن كتبه.

أمـا النبي ﷺ فواصل كتابة الرسـائل مبشـراً الدنيا بعـودة التوحيد النقي إلى الأرض من جديد فكتب:

رسالة إلى المقوقس ملك الإسكندرية

وهو أمير القبط، أو الأقباط، وهم سكان مصر، وقد تحول بعضهم من الوثنية إلى المسـيحية، وكان ملكهم أكثر تهذيباً وأكرم خلقاً من ذلك المجوسـي الأرعن.. المقوقس «أمير القبط أهدى إلى رسـول اللـه ﷺ جاريتين وبغلة، وكان يركـب البغلة بالمدينة، وأخذ إحدى الجاريتين لنفسه»[3] فأسلمت وتسراها النبي ﷺ، وقد تردد في المدينة أن قبطياً له قرابة منها رضي الله عنها يزورها ويتردد عليها، فدخل الشك إلى النبي ﷺ «فقال رسـول الله ﷺ لعلي: اذهب فاضرب عنقـه. فأتاه علي فإذا هو في ركي يتبرد

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦١٠.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٠٧٤.

(٣) حديث حسـن رواه الحارث - زوائد١-٥١١ حدثنا خالد بن خداش نا حاتم بن إسـماعيل عن بشـير بن مهاجر عن عبد الله بن بريدة عن أبيه ورواه في الآحاد والمثاني ٥-٤٤٧ والطبراني في الأوسط ٤-٣٧ من طريقين عن حاتم.. به وهو سند قوي لولا لين في بشير وهو صدوق من رجال مسلم، وله شاهد ضعيف من طريق يعقوب بن محمد الزهري عن رجل مجهول... في الآحاد والمثاني ٥-٤٤٧.

فيهـا. فقال له علي: اخرج. فناوله يده، فأخرجه فإذا هو مجبوب»[1] «فكف علي عنه، ثم أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنه لمجبوب»[2].

حملـت تلك الفتاة القبطية، فكانت أول امرأة تحمـل منه ﷺ بعد زوجته خديجة رضي الله عنها.. تلك هي هدية المقوقس الذي رفض الإسلام، لكنه كان مهذباً في رده. أما أكثر الرسائل إثارة فكانت تلك التي حملها الصحابي دحية الكلبي إلى ملك الروم.

انطلق دحية الكلبي إلى عظيم بصرى في الشـام، والذي سـيقوم بدوره بإيصال الرسـالة إلى ملك الروم هرقل، وكان قد سـبقه إلى أرض الروم - الشـام زعيم مكة وقريش أبو سفيان، لا لشيء سوى التجارة فقط.

تصادف وجود أبي سـفيان مع وصول الرسـالة النبوية الكريمة، لن يقص دحية ما حدث.. زعيم قريش أبو سـفيان الذي كان حاضراً في بلاط الروم هو من سيروي لنا القصة، حيث اسـتدعاه هرقل لطرح بعض الأسئلة عليه حول شخصية النبي ﷺ، بصفته رجلاً من قومه ومن أعرف الناس به.

لكن سـؤلا ملحاً يتجول على طريق الشـام هو: كيف يسـافر أبو سفيان وتجارته بأمان..؟ صحيح أنه لن يخرج أحد من المدينة لاعتراضهم، لكن في الطريق أمر مرعب ومخيف.. أسدان جريحان يتلمظان لانتزاع حريتهما وما سلبته قريش منهما، وهما في حـل من ذلك كله، والنبي ﷺ في حل ممـا يفعلانه، ومن الظلم إلصاق صفة الإرهاب وقطع الطريق بهما.

هما طريدا الفكرة والعقيدة.. صودرت أموالهما وأولادهما وأوطانهما، وحريتهما، ومنازلهما، وليس لهما على هذه الأرض سوى مساحة بالكاد تتسع لأنفاسهما وسيفيهما، لكنهما ليسـا في أزمة كأزمة قريش، لأنهما يحتسـبان معاناتهما عند الله، أما قريش فتعيش أزمة لا حل لها سوى العار.

---

(١) صحيح مسلم ٤-٢١٣٩ والركي هو البئر، والمجبوب هو من لا يستطيع الزواج.
(٢) صحيح مسلم ٤-٢١٣٩.

أزمة قريش

تكمن في انهيار اقتصادها، وتعذر تسيير تجارتها، وعزلتها عن العالم. ولا مخرج لها من ذلك كله إلا خلال بوابة العار المخزية، وهي التنازل عن شرطها في منع المؤمنين من اللحاق بدولتهم ونبيهم ﷺ، وهذه هي القصة بالضبط:

انفلت (أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم لما أرسل، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت)[1]. وهاهم اليوم يمحون باطلهم بأيديهم، ويتنازلون عن جورهم الذي ارتد طعنات من أبي جندل وأبي بصير في صدورهم.

لحق أبو جندل وأبو بصير ومن معهما بالمدينة، ليمارسوا حرية الحركة والمعتقد في أجواء نقية.. بعيدة عن الخرافة والظلم والجاهلية، وانطلق الكثير من الممنوعين نحو مهوى الفؤاد محمد ﷺ ومدينته المنورة بالحب والأنصار، وعادت لقريش حرية التنقل نحو الشام واليمن، بعد أن أمنت فتك أبي جندل ورفاقه.

هذا هو سبب انطلاق أبي سفيان في رحلة صيفية نحو الشام ليتزامن وصوله مع وصول:

رسالة النبي ﷺ إلى هرقل الروم

كان ﷺ يريد استثمار فترة التواضع لله التي يمر بها هرقل ملك الروم، بعد انتصار جيشه على جيش فارس، حيث عاد ذلك الملك من مدينة حمص إلى بيت المقدس سيراً على الأقدام شكراً لله.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٢-٩٧٧.

يقول أحد الصحابة: « إن رسول الله ﷺ كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه إليه مع دحية الكلبي، وأمره رسول الله ﷺ أن يدفعه إلى عظيم بصرى، ليدفعه إلى قيصر، وكان قيصر لما كشف الله عنه جنود فارس مشى من حمص إلى إيلياء شكراً لما أبلاه الله، فلما جاء قيصر كتاب رسول الله ﷺ قال حين قرأه: التمسوا لي ها هنا أحداً من قومه لأسألهم»[1].

وهنا يكمل أبو سفيان القصة فيقول: «انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ... فبينا أنا بالشام إذ جيء بكتاب من النبي ﷺ إلى هرقل، وكان دحية الكلبي جاء به فدفعه إلى عظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل، فقال هرقل: هل هاهنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقالوا: نعم.

فدعيت في نفر من قريش، فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه فقال: أيكم أقرب نسباً من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقلت: أنا.

فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي، ثم دعا بترجمانه فقال: قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذبني فكذبوه.

قال أبو سفيان: وايم الله لولا أن يؤثروا علي الكذب لكذبت. ثم قال لترجمانه: سله كيف حسبه فيكم؟

قلت: هو فينا ذو حسب.

قال: فهل كان من آبائه ملك؟ قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قلت: لا.

قال: أيتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟

قلت: بل ضعفاؤهم.

قال: يزيدون أو ينقصون؟

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٠٧٤.

قلت: لا بل يزيدون.

قال: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟

قلت: لا.

قال: فهل قاتلتموه؟

قلت: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟

قلت: تكون الحرب بيننا وبينه سجالاً يصيب منا ونصيب منه.

قال: فهل يغدر؟

قلت: لا، ونحن منه في هذه المدة لا ندري ما هو صانع فيها. قال أبو سفيان: والله ما أمكنني من كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه[1].

قال: فهل قال هذا القول أحد قبله؟

قلت: لا.

ثم قال لترجمانه: قل له: إني سألتك عن حسبه فيكم؟ فزعمت أنه فيكم ذو حسب، وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومهم. وسألتك هل كان في آبائه ملك؟ فزعمت أن لا. فقلت: لو كان من آبائه ملك، قلت رجل يطلب ملك آبائه. وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرافهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. وهم أتباع الرسل. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا. فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب فيكذب على الله. وسألتك: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟ فزعمت أن لا. وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب. وسألتك: هل يزيدون أم ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون. وكذلك الإيمان حتى يتم. وسألتك: هل قاتلتموه؟ فزعمت أنكم قاتلتموه، فتكون الحرب بينكم وبينه سجالاً ينال منكم وتنالون منه. وكذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لهم العاقبة. وسألتك: هل يغدر؟

---

(١) أي أنه لم يستطع أن يقدح فيه ﷺ إلا في قوله: أنه لا يدري هل سيغدر في المستقبل أم لا.

فزعمت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك: هل قال أحد هذا القول قبله؟ فزعمت أن لا. فقلت: لو كان قال هذا القول أحد قبله قلت رجل ائتم[1] بقول قيل قبله.

ثم قال: بم يأمركم؟

قلت: يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف.

قال: إن يك ما تقول فيه حقاً، فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أك أظنه منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي.

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم:

سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام: أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ إلى قوله ﴿ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾

فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده، وكثر اللغط وأمر بنا فأخرجنا.

فقلت لأصحابي حين خرجنا: لقد أمر أمرُ بن أبي كبشة إنه ليخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقناً بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر»[2]. «والله ما زلت ذليلاً مستيقناً بأن أمره سيظهر»[3]

لكن أبا سفيان مخمور بالزعامة والسلطة التي تخول صاحبها تشويه الحقيقة وتبرير رفضها.

---

(١) يعني قلّد قول أناس قبله.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٦٥٨ و٣-١٠٧٦.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٦٥٨ و٣-١٠٧٦.

لم ينتفع هرقل بتلك الرسالة، لكنه يشعر بوخزها المؤلم في ضميره، ولم يكن أبو سفيان أحسن حالاً منه. أما النبي ﷺ فلم يكن يعقد آمالاً على عناد كهذا.. كان يتطلع إلى مساحات خصبة يقف هذان العنيدان حراساً للقحط وتغييب الأخضر عنها. لكن لا يأس مع الدعوة، ولابد للحق أن ينتشر وينتصر ولو متأخراً، فالتأخير مجرد تمحيص للضمائر والأتباع، والتأخير في حقيقة الأمر هو اتجاه نحو الجذور، وسفر خلال الأعماق كي تتعالى شجرته في السماء، بعد أن تتمكن في الضمائر والعقول والوجدان. أما تلك النباتات التي تظهر فجأة وبسرعة، ودون رصيد جذري فما هي إلا ريح واحدة وتختفي.

لم يكن في رسائل النبي التهديد بقوة عسكرية، أو زحف أحمر لا يرحم.. كانت الرسائل موجهة نحو الضمير والعقل.. كانت رسائل تهز من الداخل، وتغزو من العمق، فليس هناك من يستطيع اليوم تهديد هرقل أو كسرى، لكنها رسالة الإسلام التي لا تعرف حدوداً. وقد أدرك هرقل أنه إن لم يستقبل الحق اليوم فسوف يستقيل له غداً، وأدرك أبو سفيان من قول هرقل ما كان يرفض إدراكه منذ سنين، فالقريب دائماً لا يقنع بإبداع القريب منه، إلا بعد أن يرى اعترافات الأبعد والأقوى تنهال على قريبه المبدع، والنبي ﷺ لم يكن ليضيع أوقاته في إقناع المعاند والحاسد، فالإسلام والزمن كفيلان بهما، وبعد أن وصلت تلك الردود إلى مسامع النبي ﷺ قال لأصحابه وحياً صادقاً، وبشرى لن تتخلف..

قال ﷺ: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»[1].

أما النجاشي فلا أدري ما رده على الرسالة التي وصلته، لكن يبدو أن الرسالة الموجهة إلى هرقل أحدثت تداعيات مزعجة ومقلقة للنبي ﷺ ولدولته، مما جعله يعد جيشاً لملاقاة طموحات الروم بإيقاف النبوة والإسلام وتداعيات الرسالة.. النبي ﷺ يعد الآن جيشاً للتوجه للشام، لكنه قبل ذلك يقوم بـ:

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١٢٥.

إرسال عبد الله بن رواحة إلى خيبر

أرسله عليه السلام لكي يقبض نصف المحصول السنوي من زراعة أرض خيبر.. حسب الاتفاق المبرم بين النبي ﷺ واليهود، والذي على أساسه أبقاهم هناك ولم يطردهم منها، وكان عبد الله يقوم بذلك عن طريق الخرص، نظراً لاستحالة الوزن والعد، والخرص هو تقدير الثمر وهو على رؤوس النخل.

وفي هذا العام حاول اليهود رشوة ابن رواحة، حيث «كان عبد الله ابن رواحة يأتيهم كل عام يخرصها عليهم، ثم يضمنهم الشطر، فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرصه، وأرادوا أن يرشوه. فقال: يا أعداء الله أتطعموني السحت، والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلي، ولأنتم أبغض إلي من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على أن لا أعدل عليكم. فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض»[1] وبهذا العدل قام الإسلام وانتشر، وبغيره تنهار دولته مهما تدين أصحابها وصاموا وصلوا وادعوا أنهم أهل الإسلام وحماته، وإلى العدل أرسل ﷺ أصحابه المعذبين ذات يوم.. إلى رجل في الحبشة يعلق الصليب على صدره، لأنه عادل لا يظلم عنده أحد.

عاد ابن رواحة إلى المدينة محملاً بنصيب دولة الإسلام من التمر، وعاد اليهود إلى بيوتهم بعد أن فشلت رشوتهم في بث الفساد المالي بين رجال دولة محمد.. هذه الدولة التي تزرع رقابة الله قبل أن تزرع الخوف من السلطة والحكومة.. عاد اليهود يخططون لجريمة جديدة ضد رأس الدولة، وأخيراً فكر اليهود بـ:

سحر النبي ﷺ

ولم يجدوا أنسب للقيام بهذه الجريمة من خادم للنبي يدعى «لبيد بن أعصم، رجل من بني زريق حليف لليهود كان منافقاً»[2] وقد كان يخدم النبي عليه السلام ويثق

---

(١) سنده صحيح رواه ابن حبان ١١-٦٠٨ والطبراني ٢٤- ٦٧ والبيهقي ٩ - ١٣٧ وغيرهم من طرق عن الثقة حماد بن سلمة عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر، وعبيد الله ثقة ثبت من أوثق الناس رواية عن نافع - التقريب ٣٧٣.

(٢) صحيح البخاري ٥ - ٢١٧٥.

بـــه رغم أنه يهودي، وقد خضع هذا الخادم لإلحاح اليهود، فأحضر لهم مشـــطه عليه الســـلام وبه شيء من مشاطه، أي الشـــعر الذي يعلق بالمشط، ووضعه في وعاء للقاح النخل يســـمونه (جف طلعة)، ثم قرأوا عليه تعاويذ السحر بمساعدة الجن، ثم أخذوه إلـــى مكان لا يمكـــن لأحد أن يعثر عليه.. مكان غائر كحقـــد اليهود. لقد خبأوه تحت صخرة يســـمونها (رعوف) وهـــي الصخرة التي توضع في أســـفل البئر، فبدأ مفعول السحر يسري في جسد النبي ﷺ فقط لا غير.

تقول «عائشـــة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ سحر، حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن»[1] أي أنه أثر على جسده فقط، أما الوحي والتبليغ فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لكن هذا السحر أثر على النبي ﷺ جسدياً، حيث إنه حرمه من الاتصال بنسائه أياماً، لكن الله لم يترك نبيه.

تقول عائشة: «كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن، فقال: يا عائشـــة، أعلمت أن الله قد أفتاني فيما اســـتفتيته فيـــه؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟

قـــال: مطبوب. قال: ومـــن طبه؟ قال: لبيد بن أعصم رجل مـــن بني زريق حليف لليهود كان منافقاً. قال: وفيم؟ قال في مشط ومشاقة. قال: وأين؟ قال في جف طلعة ذكر تحت رعوفة في بئر ذروان.

فأتى النبي ﷺ البئر حتى اســـتخرجه، فقال: هذه البئر التي أريتها، وكأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن نخلها رؤوس الشياطين، فاستخرج فقلت: أفلا - أي تنشرت[2]؟فقال: أما والله فقد شفاني الله، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً»[3].

ويـــروي زيد بن أرقم تفاصيل إخراج الســـحر فيقول: «ســـحر النبي ﷺ رجل من اليهود فاشتكى، فأتاه جبريل فنزل عليه بالمعوذتين وقال: إن رجلاً من اليهود سحرك، والسحر في بئر فلان، فأرسل علياً فجاء به، فأمره أن يحل العقد وتقرأ آية.

---

(١) صحيح البخاري ٥ - ٢١٧٥.

(٢) أي أفلا استعملت رقية لحل السحر.

(٣) صحيح البخاري ٥-٢١٧٥.

فجعل يقرأ ويحل، حتى قام النبي ﷺ كأنما أنشط من عقال[1]، فما ذكر رسول الله ﷺ لذلك اليهودي شيئاً مما صنع به، ولا أراه في وجهه»[2]. أي أن النبي ﷺ لم يقتل ذلك الرجل، ولم يشعره حتى في تعابير وجهه عليه السلام أنه يضمر له شيئاً، فلم يكن عليه السلام ينتقم لنفسه. فلم يعد لليهود من وزن، وقد تلاشت قواهم فأصبح همه عليه السلام موجهاً للقوى العظمى، التي سيطول الصراع معها في المستقبل، ومنها قوة الروم، لذلك أعد جيشاً لملاقاة الروم الزاحفين نحوه، في مكان شمال المدينة يقال له:

مؤتة

هيأ النبي ﷺ جيشه، وعين له قائداً هو ابنه سابقاً، ومولاه حالياً زيد بن ثابت رضي الله عنه، فهو لن يذهب معهم هذه المرة. لكنه عين بدلا منه أميراً أثار حفيظة بعض الصحابة رضي الله عنهم وتساؤلاتهم: كيف يعين زيد بن حارثة الرقيق أميراً!!

لكن النبي ﷺ الذي قدم لأمته درساً في هدم الجاهلية بتزويج زيد من زينب السليلة.. يقدم درساً آخر.. هاهو يوليه الإمارة على صحابته، وعندما تحركت آثار الجاهلية في بعض النفوس أطفأها عليه السلام بكلمات كالمطر.. حلف بالله أنه أهل للإمارة وإن طعن فيه من طعن، ثم قال لهم: (وأيم الله إن كان لخليقا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي)[3]

زيد الذي ملأ سمع النبي وبصره وقلبه.. زيد حب النبي ﷺ الذي تقول عنه عائشة: «ما بعث رسول الله زيد بن حارثة في جيش قط إلا أمره عليهم، ولو كان حياً بعده لاستخلفه»[4]

---

(١) أي كأنه أطلق من حبل مربوط به.

(٢) سنده صحيح رواه عبد بن حميد ١-١١٥ وغيره من طرق عن الأعمش عن يزيد بن حيان عن زيد بن أرقم. والأعمش معروف وشيخه تابعي ثقة سمع زيد. التقريب ٦٠٠.

(٣) صحيح البخاري ٦-٢٤٤٤.

(٤) سنده قوي رواه ابن أبي شيبة ٦-٣٩٢ وأحمد ٦-٢٨١ عن سعيد بن محمد الوراق ومحمد بن عبيد عن وائل بن داود سمعت البهي يحدث أن عائشة. ووائل التيمي وشيخه البهي تابعي ثقة انظر التهذيب والبهي عن عائشة على شرط مسلم.

زيـد الذي يقول عنه أحد أفراد هذا الجيش: «ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد ابن محمد حتى نزل في القرآن ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾»[1].

فمن مثل هذا الأمير وهو يتزين بهذه النياشين، ومن مثله وهو يسكن هذه القصور في قلبه ﷺ.

تلاشت الجاهلية وحضر الإسلام، وفرغ عليه السلام من إعداد الجيش، ثم خرج لتوديعهم مبكراً وهي سـنته ﷺ، وجعل زيد بن حارثة أميراً عليهم، ثم قال لهم «رسول الله ﷺ: إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة»[2]

إذاً هذه أول غزوة يشارك فيها جعفر رضي الله عنه بعد قدومه من الحبشة، وهي كذلك أول غزوة يشارك فيها فارس الإسلام الجديد خالد بن الوليد.. يا لها من أسماء تهـز الأرض، ويا له من وداع يأخذ بنياط القلب. كيـف لا وهذا الجيش القليل ذاهب لملاقاة جيش الروم الذي هزم جيش فارس..؟ كيف لا والوداع كان لزيد وجعفر..؟

زيد يودع النبي ﷺ ويودع ابنه أسـامة، وينطلق نحو مؤته، أم نحو موته والجنة..؟ وجعفـر الذي عانى الآلام والغربة والبعد يـودع ابنه عبد الله ونبيه ﷺ، وعبد الله بن رواحة.. شـاعر الموت الذي ردد الخندق شـعره، وتغنى به شـهداء خيبر وفرسانها.. الشـاعر الذي قال أحد أفراد هذا الجيش إن النبي ﷺ قال عن شعره «إن أخا لكم لا يقول الرفث، يعني بذاك بن رواحة قال:

وفينا رسـول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... بـه موقـنات أن مـا قـال واقـع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالكافرين المضاجع»[3]

وقبـل انطلاق أمراء مؤتـة تقدم جعفر رضي الله عنه بأمنيـة أملتها عليه قرابته من رسـول الله ﷺ.. أبو قتادة كان هناك يرى ويسـمع «أبو قتادة فارس رسـول الله ﷺ قال: بعث رسـول الله ﷺ جيش الأمراء، وقال: عليكم زيد بن حارثة، فإن أصيب زيد فجعفـر بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر فعبد اللـه بن رواحة. فوثب جعفر فقال: يا

(١) صحيح مسلم ٤-١٨٨٤.
(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٥٤.
(٣) صحيح البخاري ٥-٢٢٧٨.

رسـول الله ما كنت أرهب أن تسـتعمل علي زيداً. فقال: امض فإنك لا تدري أي ذلك خيـر فانطلقوا»[1] حتى وصولوا إلى أرض (مؤتة) وهي قرية من قرى البلقاء بالشـام، وهناك واجهوا أمواجاً بشـرية تدفقت من أرض الروم، واسـتعدت وأعدت، ولا أدري بالضبـط عددهم، لكن الذي أعرفه أن عدد المسـلمين كان قليلاً جداً جداً بالنسـبة لجيش الروم، أما من حيث الاسـتعداد فلا يمكن مقارنة جيش دولة الإسلام التي تبلغ الثامنة من عمرها، بجيش إمبراطورية الروم ذات القرون، والتي تسـيح جيوشـها بين قارتين. وهنا ترد الإشـكاليات العسكرية والسياسـية التي تداعت على دولة الإسلام أثناء أزمة الخندق.

ما القرار في مثل حال مؤتة

جيش رومي أوله في أوروبا وآخره في مؤتة.. أمام جيش مسـلم لا أظن أن عدده يتجاوز الألفين، وهو العدد الـذي حضر الحديبية وخيبر، بالإضافة إلى القادمين من الحبشـة والمؤمنين الجدد. مـع ملاحظة أن النبي ﷺ وأبا بكر وعمـر وعثمان وعلياً وكثيراً من كبار الصحابة رضي الله عنه لم يشاركوا.

إنها معركة أشبه بالأساطير، لكن القرآن نزل ليطبقه البشر، لا ليدهشهم فقط.. القرآن يتعامل مع مثل هذا الظرف بواقعية تناسب البشر وقدراتهم وعددهم، والأدوات المتاحة بين أيديهم.

نزل قول الله سـبحانه وتعالـى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾[2].

و«لمـا نزلت هـذه الآية ثقلت على المسـلمين وأعظموا أن يقاتل عشـرون مئتين، ومئة ألفاً، فخفف الله عنهم فنسـخها بالآيـة الأخرى فقال: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ

---

(١) سنده قوي رواه أحمد ٥-٢٩٩ وغيره من طريق الأسود بن شيبان عن خالد بن سمير قال قدم علينا عبد الله بن رباح حدثنا أبو قتادة: عبد الله تابعي ثقة وتلميذه تابعي صدوق يهم قليلاً والأسود وسليمان ثقتان وكلهم من رجال التقريب.

(٢) الأنفال ٦٥.

وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[1] وكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم لم ينبغ لهم أن يفروا منهم، وإن كانوا دون ذلك لم يجب عليهم أن يقاتلوا، وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم»[2] أي ينسحبوا من مواجهة العدو ويلتحقوا بباقي المسلمين، وهو ليس كالفرار، فالفرار هروب إلى أي جهة، أما التحيز فانسحاب منظم هدفه الإبقاء على قوة الجيش المسلم عند تعذر المقاومة.

جيش المسلمين الآن معذور في التحوز والانسحاب، نظراً لأن عدد الروم يعادل أضعاف أضعاف عدد المسلمين وعدتهم، وهو ما ينبغي ملاحظته عند التحدث عن الجهاد، فالجهاد ليس مجرد حماس وشجاعة فقط، فعندما تأمل أحد الصحابة جيش الروم.. وجد أن الروم لم يكونوا وحدهم.. معهم أبناء جلدتهم وديانتهم الذين لا يتخلون عنهم.. معهم جيوبهم المتغلغلة في أراضي المسلمين في كل زمان ومكان.

نصارى العرب يقاتلون مع الروم

ظروف قاسية للغاية، فالحرب الآن ضد النصارى العرب والروم، ويبدو أن المعارك تقفز نوعياً إلى مرحلة المجابهة مع الدول الكبرى، التي غالباً ما يصيبها الهلع والغضب من انتشار أفكار تخالف أفكارها، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بالدين.

كان الصحابة يأخذون قسطاً من الراحة، ويتناولون شيئاً من الطعام. أحد المجاهدين تبرع بذبح ناقته ليطعم بعض أفراد الجيش، وكان ضمن هؤلاء رجل من أهل اليمن لا يملك إلا سيفه وإيمانه.. قدم من بلاده للمساهمة في منازلة الروم.

نهض اليمني إلى صاحب الناقة ولما وقف أمامه تقدم بطلب غريب، وكان بالقرب منه عوف بن مالك الذي يحدثنا عن قصة:

---

(١) الأنفال ٦٦.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري في تفسيره ١٠-٣٩: حدثني عبد الله بن أبي نجيح عن عطاء بن أبي رباح عن عبد الله بن عباس وهذا السند على شرط البخاري في أكثر من خمسة مواضع وابن أبي نجيح ثقة من رجال الشيخين.